8 توطئة للجنون

حالما ارتطم غايلز ماكوي بالماء، وجد نفسه حبيس فقاعات هواء ناجمة عن غوص السفينة إلى حتفها وانجرف إلى الأسفل عميقاً داخل التيارات الدوامة بحيث بدا له أن الضغط سيفقأ عينيه ويفجر طبلتي أذنيه. كان يغرق عندما أخذ فجأة يندفع إلى الأعلى مثل قذيفة أطلقت من مدفع. وأخيراً وصل إلى السطح محاطاً بأطنان من الزبد المالح الناتج عن آخر شهقة أطلقتها السفينة.

تقيأ ماكوي نبعاً صغيراً من الماء المالح الزيتي ثم نظر حوله مشدوهاً، إذ بعد أن التهم البحر السفينة، بات أكثر هدوءاً وأشبع شهيته مؤقتاً. أحس بالرهبة والدهشة اللتين قد يشعر بهما المرء عند هبوطه وسط فوهات المريخ وأراضيه القاحلة. ولم يكن يشاهد على مد البصر سوى أمواج عاتية. إنه عالم بدون أناس وبلا هدف. هل هو آخر رجل بقي على قيد الحياة؟

وسرعان ما وجد أنه لم يكن كذلك، إذ على بعد عشرين متراً تقريباً، رأى ماكوي فجأة مجموعة من نحو مئة من الناجين. سبح

باتجاههم ولم يستطع تمييز الواحد عن الآخر إلاّ بصعوبة إذ بدا جميعهم أشبه بالمستنزجين وكانت وجوههم مثل وجهه مغطاة بزيت الوقود من جراء بقعة زيت أشبه بالأنكليس حملتها الأمواج التي خلفتها السفينة الجانحة. ولكنه لم يميز يوجين مورغان Eugene Morgan، أحد زملاء عريف الملاحين وواحداً من قلة من البحارة تعرف عليهم جيداً على متن السفينة.

بينما كان الآخرون يطفون على سطح الماء بفضل واقيات النجاة التي كانوا يرتدونها، كانت إحدى ذراعي ماكوي لا تزال خارج سترة النجاة. بيد أنه فرشخ بعد وقت قصير فوق صفيحة ذخيرة مرت قريباً منه وصحح ارتداء السترة، وتوقع أن تصبح الصفيحة بيته المؤقت إلى حين وصول الغوث. ولكنه شاهد بعد ذلك رمثاً على بعد خمسين متراً تقريباً وعلى متنه عدة رجال. لا بد أن الرمث أفضل بكثير من صفيحة الذخيرة. قال لمورغان إنه سوف يسبح إلى ذاك الرمث. حاول مورغان أن يثنيه عن ذلك إذ إن الرمث بعيد للغاية وطلب منه البقاء حيث كان قائلاً له: «من المؤكد أنهم سيعثرون علينا في الصباح ويلتقطوننا».

لكنه أصر على موقفه ـ رغم معرفته بوجود أسماك القرش تحوم حول المكان وتجذبها الضحايا الذين يكونون بمفردهم. أخذ يسبح نحو الرمث ولكن طبقة الزيت التي تبلغ سماكتها بوصتين جعلته يشعر وكأنه يشق طريقه عبر الوحل في حين لن تسمح سترة النجاة له

بالسباحة تحت الزيت. وهكذا قفل عائداً إلى مورغان ونزع سترة النجاة وناوله إياها وطلب منه إعطاءها إلى شخص آخر.

ثم غاص تحت طبقة الزيت وسبح ثانية نحو الرمث. ولكن في كل مرة كان يصعد إلى السطح من أجل استنشاق الهواء، بدا الرمث يزداد بعداً عنه. كان سباحاً قوياً ولكنه ليس بوسعه السباحة طيلة الليل. لعل مورغان كان محقاً. فكّر في والدته، ربما ما كان ينبغي له المجازفة بتهور وحرمانها من ابنها. هل ستتاح له معانقتها ثانية أو تذوق فطيرة اليقطين التي تعدها؟ شعر بأن عليه البقاء حياً، ولكن أخذت عضلاته تضمر تدريجياً في حين كان يتعين عليه أن يخرج عنوة كل زفرة من حجابه الحاجز الموجع. كانت عيناه وحنجرته ومنخراه يقدحون ناراً من جراء مزيج الماء والزيت المر وكانت معدته لا تزال متشجنة نتيجة غثيان موهن.

وإذ أوشك جسمه على تحدي إرادته، أمسك ماكوي وهو يرتجف بحبل متدل من الرمث ولكنه كان واهناً لدرجة أنه لم يستطع التشبث به. وأخيراً أفلت الحبل من يده وأخذ ينساب بعيداً حين أمسك به أحد الأشخاص من شعره وجره على الرمث الذي كان عبارة عن حلقة عرضها قدم واحد من خشب البلسم مع أرضية خشبية مشبكة في الوسط.

استلقى على الحافة اللزجة وهو شبه واع وتقيأ مزيداً من الزبد، ثم استعاد وعيه بعد بضع دقائق وحملق في الوجوه السوداء لحوالى

ستة رجال آخرين. وبصفته من مشاة البحرية، لم يكن يولي البحارة اعتباراً عالياً، ولكن سيسره الآن الانضمام إلى هؤلاء الأشخاص على أي شاطىء تقريباً.

وفجأة صاح أحدهم قائلاً: «انظروا، هناك سفينة».

رفع ماكوي نفسه مثل جواد ناري انطلق عند سماع صوت إنذار وسحب مسدساً عيار 45 من القراب الذي كان لا يزال يزين حزامه. لاح ظل خيال في السماء التي أضاءها القمر لفترة وجيزة الآن. وبدت السفينة على شكل غواصة من حيث برج المراقبة الذي كان على سطحها ولكنه لم يشاهد في حياته قط غواصة بمثل هذا الحجم الكبير. أعتقد أنها لا بد وأن تكون مدمرة صديقة. أطلق ماكوي عيارين في الهواء وسمعت الطلقتان رغم أن المسدس كان يقطر ماء. عسى أن يرى أحدهم الوميض. ولكن لم يكن هناك سوى الصمت. اختفى الشبح أخيراً في الظلمة دون أن يومض نوراً أو يرسل شعلة. وبروح أقرب ما تكون إلى اليأس، أدرك الرجال السبعة عشر الذين كانوا جالسين على الرمث أو متشبثين به بالحبال أن البحر سيظل سريرهم لتلك الليلة، وكانت ليلة تدوي فيها صيحات الجرحى وبالنسبة إلى ماكوي صرخات الهالكين في مقصورة الزنزانة أيضاً.

«أيها الطبيب»! «أيها الطبيب»! جاء صدى النداء فوق البحر المتهادي، صيحة عالم على وشك الموت. كانت هناك عوالم كثيرة طافية بعد غرق الطراد إنديانابولس. وبما أن السفينة ظلت تبحر قدماً حتى لحظة اختفائها تحت الأمواج، تجمع الرجال الذين قفزوا

ووشَمُوا المحيط على امتداد أميال عدة في مجموعات عديدة، وكل مجموعة منعزلة عن الأخرى ولا يكادون يرون أبعد من ذروة أقرب موجة مزبدة. لم تكن كل مجموعة تدرك حتى وجود المجموعات الأخرى. كانت كل مجموعة تشكل إمبراطورية صغيرة ذات سيادة لها قواعدها الخاصة بها ولها زعماؤها وأبطالها ومرتدوها.

كان الطبيب هينز ضمن أكبر مجموعة يتراوح عددها بين ثلاثمئة وأربعمئة رجل كافحوا من أجل البقاء بدون مساندة من رمث أو شبكة عوم. وسرعان ما انقسمت هذه المجموعة إلى ثلاث أو أربع مجموعات فرعية التحمت كل منها على مسافة بعيدة نوعاً ما عن الأخرى. غير أن عالم الطبيب ضم كل هذه المجموعات الفرعية إذ ثمة حاجة له في كل منها لتخفيف آلام الجرحى والصلاة على الموتى. ولحسن الحظ، حصل هينز على عون من الملازم ملڤن دبليو موديشر Melvin W. Modisher وهو أيضاً طبيب رائع شفوق ساعد في رعاية الجرحى وخفف من العبء الرهيب الذي كان يثقل كاهل هينز. كان هينز ممتناً أيضاً لما أبداه الرجال القادرون من شجاعة وتعاون بينما كان كل واحد مفعماً بالخوف وبشعور بالهلاك. قدم الرجال الذين كانوا يرتدون واقيات النجاة المساعدة لأولئك الذين كانوا بدونها ـ إلى أن مات رجال وخلفوا وراءهم واقيات للأحياء.

ولكن إلى متى يستطيع المرء الاحتفاظ بقوته وإرادته لمساعدة رفاقه إذا لم يصل الغوث قريباً؟ لم تكن الفرص وردية. هز أحد مشغلي الراديو رأسه بريبة حين سأله هينز عن رسالة الاستغاثة. ظن

الرجل أن التيار الكهربائي انقطع لحظة إرسال إشارة الاستغاثة. ماذا سيحدث في نهاية الأمر عندما تتعطل واقيات النجاة التي كانت تساعد الرجال على البقاء خارج الماء فوق الخاصرة بقليل؟ فالحزام المطاطي الهوائي ينثقب بسهولة بسبب الحطام ويفرغ الهواء منه بسرعة على أي حال. ووفقاً للخبراء، تظل سترات النجاة المحشوة بالألياف والتي تركب حول الصدر طافية لمدة ثمان وأربعين ساعة إذ تصبح الألياف بعد ذلك مشبعة بالماء بحيث لا تعود صالحة لتقديم العون. وبالتالي سيغرق الرجال بوصة تلو الأخرى إلى أن تنغمر أنوفهم تحت الماء في نهاية المطاف. حاول هينز طرد الفكرة من رأسه ولكن دون جدوى. جدّف الطبيب نحو الرجال الذين نادوه. أشاروا إلى رجلين وسألوه إن كان بوسعه عمل أي شيء لهما.

وضع هينز إصبعه على بؤبؤ إحدى العينين. لم تكن هناك استجابة. إنه ميت. وكذلك الأمر بالنسبة للرجل الثاني. من هما؟ لم يكن أحد متأكداً.

كتب هينز في وقت لاحق في إحدى مذكراته: «لقد اندثرت شخصياتنا. كنا جميعاً نبدو متشابهين. وجوه كالحة وبياض أعين وحمرة شفاه محاطة بزيت أسود. ولكن لم يكن هناك رعب في الأعين ولا رعشة على أية شفاه».

ساعد هينز في نزع سترتي نجاة الرجلين كي يرتديهما غيرهما. تمنى لو كان الأب كونواي قريباً لكي يؤدي الطقوس الأخيرة. ولكن الأب، رغم كونه على وشك الانهيار، كان ينتقل من جثة إلى أخرى

للصلاة عليها. كيف يمكنه أن يستمر كذلك بالنسبة لجميع الموتى ـ أو حتى للأحياء الذين كانوا بحاجة إلى كلماته للتخفيف من آلامهم وقلقهم؟ وهكذا أمّ هينز بنفسه الصلاة مع المجموعة بينما ألقيت الجثتان في البحر لتلتهمهما على الأرجح أسماك القرش التي كانت تحوم هناك بانتظار فريسة سهلة.

«أغثني أيها الطبيب!» نداءات أخرى. هل ستتوقف قط؟ يستطيع هينز إرسال الموتى إلى السماء بالصلاة عليهم. ولكن غالباً ما لا يستطيع مساعدة الجرحى، إذ لا توجد أدوية ولا ضمادات ولا مراهم. ومع ذلك، بقي يتنقل بين الناجين، من المحترقين إلى المشلولين إلى المنهكين إلى مجرد الخائفين، يبعث الأمل والسلوان وحتى قليلاً من الفكاهة. حذرهم دون هوادة من شرب ماء البحر مهما تعاظم عطشهم وإلاّ سيصابون بالإسهال الذي سيزيد من نكازهم، وبالتالي يفقدون تماسكهم ويصابون بهذيان الحُمَّىٰ، ويموتون في حالة من الألم المبرح. ولم يكن هناك ماء نقي وكانت كمية الغذاء قليلة ـ بعض البطاطا والبصل التي كانت تطوف قريباً منهم ـ ولكنه أكد لهم أن بإمكان الرجال البقاء على قيد الحياة أياماً دون ماء أو غذاء. وعلاوة على ذلك، سيصل الغوث قريباً. طلب إليهم الصمود مؤكداً لهم أنهم سينضمون إلى عائلاتهم قريباً.

ولكن هينز كان يدرك أن الكثير من هؤلاء الرجال لن يروا عائلاتهم مرة أخرى، وأن معظم أولئك الذين أصيبوا بجراح بالغة على متن السفينة أو أثناء القفز من على متنها سيموتون من جراء

إصاباتهم أو من الصدمة في غضون أربع وعشرين ساعة. إذا أراد الرجال البقاء أحياء أطول فترة ممكنة، عليهم أن يظلوا معاً، ليس للحؤول دون هجمات سمك القرش فحسب، وإنما لإبقاء المعنويات عالية. إن الذين يبقون على انفراد ومنعزلين هم أسرع من يستسلم لليأس والموت. وبالفعل، فإن أشد خوف ينتاب الناجين هو الموت بوصفهم «منبوذين طردوا من القطيع». وبالتالي، أبقي الرجال المصابون بإصابات بالغة في وسط كل مجموعة لأنهم الأكثر احتمالاً بالابتعاد طواعية أم لا.

أحس هينز بالسعادة حين عثر على أحد الرجال عائماً بواسطة حلقة نجاة من الفلين مع حبل طويل متصل بها، وقد وُضع عبرها بحار مصاب بجروح بالغة. ثم أمسك بالحبل أكثر من 150 رجلاً. وبعد فترة قصيرة، التف الحبل حول الحلقة وكأن قوة خارقة جذبته، وضغط الرجال معاً وتغلبوا على خوفهم من أن يتيهوا لا إرادياً، وربما في أثناء نومهم.

كان النقيب إدوارد ل. بارك Edward L. Parke، آمر مفرزة مشاة البحرية، والملازم اتش. سي. موينلو الابن H.C. Moynelo Jr.. من بين أولئك الرجال الذين لم يكفوا عن البحث عن التائهين. ورغم كونهما منهكي القوى، كان هذان الرجلان يجمعان زملاءهما دون توقف ويعيدانهم إلى «القطيع»، حتى إن كل واحد منهما تنازل عن سترة النجاة التي كان يرتديها إلى أولئك المحتاجين لها.

استخدم آخرون ما بقي لديهم من طاقة لمساعدة الجرحى

والرجال بلا سترات. كان الملازم ماكيسيك أحد هؤلاء المساعدين الذين كان من بينهم أيضاً البحار غارلاند لويد رتش Garland Lloyd Rich الذي، مثل ماكيسيك، ينحدر من مدينة صغيرة في تكساس وكان يلعب ضمن فريق كرة قدم كان يدربهم الملازم. وظل رتش ينادي موجهه القديم بكلمة «مدرب» واعتبره ملهماً له في الماء بقدر ما كان ملهماً له في ملعب كرة القدم. وتنقل بلا رحمة وهو يسير من رجل إلى آخر، وغالباً برفقة هينز، يقوي من عزيمتهم إلى أن يفارقوا الحياة أو إلى أن يصل أحد ليحل مكانه.

كان أنتوني فرانسيس ماداي Anthony Francis Maday ضابط صف في الطيران مهمته مراقبة الآلات. وقد ظل ممسكاً بالضابط لبسكي لمدة 24 ساعة تقريباً. كان الدكتور هينز يولي لبسكي عناية خاصة فقد كان مصاباً بحروق بالغة لدرجة أن أوتار يديه كانت بادية للعيان، في حين كانت عيناه اللتان فقدتا البصر كلياً أشبه ببيضتين مقليتين. كان يتعين رفعه إلى أعلى كي لا تلمس يداه ووجهه المسلوخ عنه الجلد الزيت والماء المالح خشية أن يشتد ألمه. رفعه هينز أحياناً وهو يخفف عنه آلامه بتذكيره بالأوقات الجميلة التي تشاطراها معاً، واللحظات السعيدة أثناء إجازتهما حين كانا يرتشفان الشراب معاً ويتحدثان عن عائلتيهما وماضيهما. ولكن لم يستطع الطبيب إخماد الأفكار المروعة بخصوص المستقبل الفوري حين كان كل رجل يغوص إلى الأسفل ببطء نحو اللانهاية.

ترقب هينز طلوع النهار بفارغ الصبر. من الأسهل طرد مثل هذه

الأفكار من ذهنه عندما تسطع الشمس وتضفي بهجة على العالم وتجدد الأمل في الإنقاذ. ولكن عندما حل الصباح، استمر العذاب وأفسحت عفاريت الليل المجال لعفاريت النهار. منذ حوالى الساعة العاشرة صباحاً، عانى معظم الرجال من رهاب الضوء حين كاد وهج الشمس المنعكس على البحر المغطى بالزيت يعمي أبصارهم.

وكما روى هينز لاحقاً: «حتى عند [إغلاق] عينيك، لم يكن هناك مفر لأن كرتين من النار كانتا [تحترقان] عبر جفنيك».

بارك هينز الرجال الذين جالوا وهم يمزقون قطعاً من القماش من ملابس رفاقهم لعصب أعينهم والتخفيف من وطأة أشعة الشمس. كما كان ممتناً لوجود الزيت، إذ رغم أنه أمرض الرجال وساعد على فقدان بصرهم، فقد كان بمثابة صاد للشمس وربما بمثابة طارد لسمك القرش كذلك.

سبب النهار الألم أيضاً لأنه كشف عن أهوال الليل. لم يكن على هينز عد الناجين لكي يدرك بلمحة بصر أن عشرات منهم، ربما خمسين، قد هلكوا في ليلة واحدة. تذكر الصرخات التي تقطع نياط القلوب. هل ماتوا بسبب إصابتهم، هل جرتهم أسماك القرش إلى الأسفل، هل استسلموا للإرهاق وسمحوا لأنفسهم بالانسياق إلى طي النسيان؟

والأسوأ من كل شيء هو أن النهار كان شاهداً على اغتصاب الأمل.

صاح أحدهم صباح الاثنين الباكر: «انظروا إنها طائرة»!.

«أين»؟

«هناك. صدقوني إني أراها. إنها هناك»!

ويروي هينز لاحقاً: «نظرنا جميعاً. كانت هناك. لقد أخفقوا في رؤيتنا. وقد وجدونا».

أخذ الرجال يلبطون الماء بأقدامهم، ونثر أحد الضباط على الماء صباغاً أخضر اكتشف وجوده في سترته. هذا يكفي. سيرى طاقم الطائرة الصباغ ويطلب الغوث بواسطة الراديو.

ويقول هينز لاحقاً إنها كانت فكرة رائعة راودت أذهاننا بينما كنا نراقب الطائرة وهي تمر فوقنا على ارتفاع 1500 قدم تقريباً.

صاح أحد الرجال: «يجب أن يرانا».

لكن الطائرة واصلت الطيران وغدت أصغر فأصغر إلى أن اختفت أخيراً واختفت معها الآمال.

وعندما حلقت طائرات عديدة أخرى في وقت لاحق على ارتفاع عال، لزم الرجال الصمت وهم يحملقون في السماء، وخابت آمالهم مرة أخرى.

وأخيراً صاح أحد البحارة: «أيها الزملاء إنهم طيارون عميان. مجرد مجموعة من الطيارين العميان».

وَلَّدَ فقدان الأمل واليأس فورة ضعيفة من الدعابة، إذ أجمع الكل

على أن رجال سلاح الجو هؤلاء لا يمكن لهم أبداً البقاء أحياء في سلاح البحرية. ضحك الجميع حتى حين كان رجال البحرية يجاهدون لإبقاء أنوفهم فوق الماء.

«أيها الطبيب! أيها الطبيب!».

تساءل هينز عن عدد الطلبات التي بإمكانه تلبيتها، وعن عدد الرجال الذين بوسعه إنقاذهم. ربما لا أحد. ولكن يجب عليه محاولة إرسال قلة أخرى من الرجال إلى راحتهم النهائية بكلمات عذبة. أرهبته الأهوال الجديدة التي ستفسد النهار ثم الليل مرة أخرى عندما يصبح الجسد جائعاً آنذاك ويتوق إلى الطعام اللازم لبعث الطاقة والحرارة وتنجم عن ذلك قشعريرة هائلة تنتهي بالهذيان. لن يحاول حتى تصور ما قد يحدث فيما إذا استمر الوضع على حاله أياماً أُخر من الليل والنهار. عند أية نقطة سيصاب هو والرجال بالجنون؟

«أيها الطبيب! أيها الطبيب! رجاءً!».

«أجل. إنه قادم. اصمد أيها الملاح».

لم يكن كل من الناجين من الذين يؤثرون الغير على أنفسهم بقدر ما كان الدكتور هينز ومن ساعدوه. كان أدولفو سيلايا أحد الذين صادفوا مجموعة رجال أقل اهتماماً بغيرهم. كان سيلايا لا يزال يفيق من صدمة احتمال أن يكون قتل صديقه سانتوس بينا حين قفز في الماء فوقه. سبح سيلايا بعيداً وهو قانط وصعد على رمث كان يعوم

بالقرب منه. ولكن رغم وجود رجلين فقط على الرمث، رفضا أية رفقة، وعلى الأقل رفقة سيلايا.

صاح أحدهم: «ابتعد من هنا. هل تريد أن تقلب هذا الرمث رأساً على عقب؟».

ترك سيلايا الرمث ولكنه تشبث بحبل كان متدلياً منه. لقد انعصر. رغم أن بوسعه قبول الموت، هل عليه أن يموت ذليلاً، «منبوذاً من القطيع؟».

ثم سبح خمسة أو ستة رجال إلى الرمث وصعدوا على ظهره وهم في غاية الخوف من أن يطردهم الشاغلان الأصليان، وتلاهم آخرون. ولكن أولئك الذين كانوا على متن الرمث ركلوا هذه المجموعة الجديدة وتعارك الرجال من أجل بوصة مربعة واحدة من الفسحة على حافة الرمث وفي داخله المليء بالماء. وحين أخذ الرمث ينقلب، قفز بعض الرجال من فوقه ونشبت المعركة مرة أخرى. لم يشعر سيلايا بالعزاء وهو يرى أنه يمكن للرجال البيض التعامل مع بعضهم البعض بنفس القسوة التي يعاملون بها الرجل المكسيكي.

وبعد بزوغ الفجر بفترة قصيرة، انساب رمثان آخران وشبكتا عوم تسندهما قطع من الفلين. كانت وسائط النقل الخمس مربوطة معاً وكل منها محملة بأكثر من طاقتها برجال مهروسين الواحد تحت الآخر بخليط هائل من اللحم، بينما تهافت عشرات من السباحين

للانضمام إلى المجموعة والتشبث بالحبال المدلاة من وسائط النقل البالغة الصغر. وهكذا وُلد عالم صغير جديد يتألف من حوالى 150 شخصاً، عالم لا يزال يجيش في الفوضى بينما لا يزال رجال في الماء يكافحون بشراسة للانضمام إلى آخرين استكانوا على أجزاء صغيرة جداً من الخشب أو الشِباك أو حتى لإزاحتهم وأخذ مكانتهم.

كافحوا للفرار من الرعب الذي أصابهم ليس من جراء تدليهم إلى أمد غير محدود في فراغ مميت بلا نهاية وبلا قاع فحسب، بل ورعبهم أيضاً من إشباع النزوات المفترسة لأسماك القرش آكلة البشر وغيرها من مخلوقات الأعماق القاتلة ـ سمك البركودة، وسمك الحبار الهائل الحجم، وقناديل البحر السامة. وفي واقع الأمر، لم يمر وقت طويل حتى أخذت زعانف سمك القرش الأشبه بالأشرعة تحوم حول عالمهم وتشن غزوات داخله.

لم يكن الرجال المذعورون في الماء واثقين مما يجب فعله وكان كثير منهم يحسّ النسيج الخشن لجلد سمك القرش وهو يسحج أقدامهم. نصح الخبراء البعض منهم بالبقاء دون حراك والتظاهر بالموت في حين قيل لآخرين أن يلبطوا الماء بأعنف ما يستطيعون ـ وكان هذا على ما يبدو هو رد الفعل الأنسب. وفي كلتا الحالتين، تردّدت أسماك القرش في مهاجمة المجموعة، خلال ساعات النهار على الأقل. ولكن لدى إلقاء إحدى الجثث في البحر، كانت الأسماك تشاهد وهي تنقض عليها وتمزقها إرباً إرباً وهي تتدلى داخل قبرها ـ وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت الرجال يتردّدون في

التظاهر بالموت. وأثناء الليل، كانت تسمع صرخات مرعبة في هذه المجموعة، كما هو الحال في المجموعات الأخرى، حين يختفي أحد الرجال بدون تفسير، بينما تلطخ برك الدم سجادة الزيت الكبيرة، وإذا تاه أحدهم مسافة بعيدة جداً، تلتهمه أسماك القرش حياً كان أم ميتاً. وبالتالي كان الرمث، وحتى شبكة تحميل البضاعة، يبدوان للسباحين تماماً كما تبدو الواحة لرجل ضل طريقه في صحراء حارقة.

على أي حال، سرعان ما كانت صرخات المصابين بجروح في مجموعة سيلايا تمتزج بصيحات أخرى تقول: «دعوا الجرحى على الرمث»! وبدافع من الشفقة أو الخجل، يوافق بعض الناجحين القادرين الموجودين على الرماث والشباك على التنازل عن أماكنهم النفيسة لأولئك الذين كانوا الأكثر معاناة وألماً. ولكن بما أن الواحة العائمة لم تكن تستوعب سوى 15 أو 20 شخصاً، لم يكن بالإمكان استيعاب جميع المصابين، ويستمر الليل في ترديد صرخات الاستغاثة المثيرة للشفقة. أخذ بعض الجرحى الذين بقوا في الماء ينساقون بعيداً بسبب حالتهم الواهنة وغير المستقرة، ولكن كان سيلايا وغيره من الرجال الأبطال في المجموعة يعيدون المحظوظين من الجرحى قبل أن تصل أسماك القرش إليهم.

كان أحد الرجال الذين حاول سيلايا إنقاذه هو رئيس طاقمه الذي دربه على مهنة رجل المطافىء. وكان هو الرجل الآخر الوحيد الذي ظل على قيد الحياة من قسمهم. كان التلميذ بدوره قد لقن معلمه اللغة الإسبانية وتطورت بينهما علاقة وثيقة. إنه رجل أبيض جيد!

لحقت بساق الرجل إصابة بالغة ولم يكن يريد الاستمرار في العيش بسبب ما كان يعانيه من ألم مبرح.

قال سيلايا: «لا تقلق. سوف تنجح وسنشرب بعد ذلك معاً كوباً من الشاي المثلج». أصر الرجل على أنه لن يعيش لأن قلبه مريض.

أوثقه سيلايا على رمث كي لا يستطيع التحرك ثانية واستمر في الصباح يهدىء من روعه ويحدثه عن الإنقاذ وعن المستقبل المشرق الذي ينتظره.

أجاب الرجل: «كلا. كلا. لا أريد أن يخبرني غلام بما يجب أن أفعله. تباً لك، دعني أذهب»!

رفض سيلايا وكان واثقاً من أنه سبق له أن قتل أحد أصدقائه ولذلك لن يدع صديقاً آخر يذهب في تلك المقبرة المائية الشاسعة ليموت بائساً ووحيداً ـ أشبه بمكسيكي. كان يشعر بالمرارة. لماذا لا يستطيع صديقه المصاب العثور على مكان ما على رمث أو شبكة؟ ألا يوجد هناك ضباط لإصدار الأوامر؟

كان هناك ضباط من بينهم الملازم ردمين الذي كان لا يزال يبحر معتمداً على نزر قليل من الحظ. كان قد غادر غرفة المحركات في مؤخرة السفينة قبل حوالى دقيقة واحدة من اللحظة التي مات فيها رجاله. صعد من السطح السفلي إلى الأعلى بينما كانت السفينة تنقلب، ونجح في الفرار داخل الماء بحركات بهلوانية مثيرة.

وما إن أصبح في الماء حتى وجد صفيحة ذخيرة تطفو بالقرب

منه. تشبث بها إلى أن شاهد بعد دقائق سترة نجاة متجهة نحوه. وبعد عدة دقائق، شاهد رمثاً متجهاً نحوه، ويبدو أنه الرمث الذي لم يسمح لسيلايا بالصعود إليه. صعد الملازم مع آخرين على متن الرمث سواء كان مرحباً بهم أم لا.

أحب ردمين السلطة على الدوام ولكنه كان شغوفاً أيضاً بطبيعة حياته الساحرة. وفي هذه اللحظة المرعبة، حين كان الرجال لا يقاتلون العدو وإنما يقاتلون زملاءهم في نضال لا يعيش فيه إلاّ الأقوى، ليس من الحكمة إشهار الرتب ـ أو حتى ذكرها. في الحقيقة، لم تكن هناك رتب الآن، إذ بات جميع الرجال بلا أسماء ولا يمكن التعرف إليهم، أشكال بوجوه سوداء في غابة تسود فيها المساواة بين البشر. ولذلك فإن أي فرد يدعي سلطة إخبار الآخرين بكيفية التصرف في هذا العالم الفوضوي الصغير سيصبح موضع عدم ثقة وسخرية وربما يتم التخلص منه.

وتجنباً لأي نزاع غير ضروري، تخلى ردمين عن أعز ما يملك ـ حذاءه المخصّص لأيام الآحاد. لم يستمتع قط بحذاء أفضل منه وكان شديد التعلق به بنفس القدر الذي كانت سندريلا متعلقة بحذائها الزجاجي. كان يريد الاحتفاظ بالحذاء حتى وإن كان من الصعب السباحة به. ولكن عندما سمع صوتاً يصيح بنبرة ساخرة: «يوجد نغل على هذا الرمث يلبس حذاء» ـ وكانت صرخة فعلية للتمرد على النخبة المسرفة في الأناقة ـ أدرك ردمين أن الوضع لم يعد يحتمل الانتظار.

نزع حذاءه خلسة وألقاه في الماء. إن التخلص من الحذاء أفضل من التخلص من صاحبه.

شعر ردمين، على ما يبدو، أنه إذا لم يكن بالمستطاع وقف حريق مستعر، عليك الانتظار حتى تخمد الحريق قبل البدء في إعادة البناء. ولن يستطيع إعادة بناء الثقة في السلطة إلاّ إذا انتظر تبدُّد الهلع في معيار وجود دنيوي ـ وإلى جانب ذلك، قد لا يفهم الرجال أن عليه البقاء على الرمث لأن الزيت والماء المالح سيزيدان من الألم المبرح الذي يحس به في يده المحترقة وفي معدته المبطنة بطبقة من الزيت ـ ألمٌ يتفاقم نوعاً ما نتيجة التفكير برجاله الموجودين في غرفة المحركات، وهو تفكير كان مصدر عذاب له.

وهكذا، قرّر ردمين أن يظل، لفترة ما على أية حال، بمعزل عن الصراع المذعور على الرماث ويحتفظ بطاقته. وسوف يثبت سلطته في اللحظة المؤاتية ـ وبخاصة في تقنين الطعام والماء. كانت توجد على متن الرماث سبام Spam، وبسكويت، وأقراص من الملت، وبراميل خشبية صغيرة من الماء العذب، ويجب ألاّ يحصل أي كان على أكثر من حصته.

لم يكن ردمين متأكداً بالفعل مما إذا كان عليه تولي المسؤولية، ولم يكن ليبالي قط لو أن ضابطاً أعلى رتبة منه قدم نفسه. ولما كان من المتعذر تمييز الوجوه، فلربما كان يجلس بجانب القبطان. سأل الرجل الجالس بجانبه إن كان ضابطاً. جاء الرد بالنفي. وجَّه السؤال

ذاته إلى آخرين حوله وكان الرد بالنفي أيضاً. وأخيراً، بعد الفجر، وجد العديد من الضباط ولكنهم جميعاً أدنى منه رتبة، من بينهم الضابط توايبل.

ظل هارلان توايبل محتفظاً بهيبة خريجي أنابولس حتى حين كان يعوم في أمواج المحيط العاتية. فقد بقي مرتدياً بزته (الخاكي) المزرّرة وجواربه مسحوبة إلى أعلى مع أنه تخلص من حذائه دون أن يعاني من الحزن الذي أصاب ردمين. فقد تعلم من دروس البقاء حياً أنه يجب عدم لبس الحذاء في المحيط مهما كان مريحاً. كما لم يتجاهل الكثير من القواعد الأخرى. كان وجهه أسود بسبب الزيت ولكنه لطخ وجهه بطبقات إضافية من الزيت لحمايته من أشعة الشمس وأجبر نفسه على تقيؤ كل ما يستطيع من الزيت والماء المالح بدلاً من انتظار رد فعل لا إرادي، مثلما فعل معظم الرجال.

ثم طبَّق أيضاً ما تعلمه حين تولى على الأقل مسؤولية الرجال الذين كانوا بالقرب منه في الماء وظل طيلة المحنة يبدي الجَلَد الرزين المتوقع من رجال البحرية. ولكن عليه توخي الحذر لأن ردمين كان ضمن المجموعة ومن غير الملائم له اغتصاب سلطة ضابط أعلى منه رتبة. بيد أن ردمين كان في الوقت نفسه يعاني بشدة من إصابته ولم يكن في وضع يسمح له بقيادة هؤلاء الرجال الذين كان من المتعذر السيطرة عليهم وهم في حالة من اليأس وكانوا بحاجة إلى توجيه من رجل متمرس.

جلب توايبل شخصياً الكثير من الرجال في المجموعة ولملمهم مثل الأوراق المتساقطة وأقنعهم بأن يمسكوا بأيدي بعضهم البعض لتجنب الانجراف بعيداً. صاح: «السلامة بالوفرة» وهي عبارة تعلمها في الأكاديمية. وفي ارتباكهم، أطاعه الرجال مرة أخرى، رغم أنه لم تكن لدى معظمهم أية فكرة عمن يكون توايبل. وكما شرح توايبل في وقت لاحق: «لم أكن أعرف العديد من المجندين، إذ لم يكن لدي أي سبب يدعوني إلى الاختلاط بهم». غير أنه كان يعرف مسؤوليته تجاه الطاقم حق المعرفة وسيحاول الحيلولة دون أن يتحول الرجال إلى رعاع.

أدرك توايبل، شأنه شأن ردمين، أن الأوامر لن تطاع بالضرورة. ولذلك قرّر إعادة الرجال إلى جادة الصواب بأن أمّهم للصلاة حين بدأت الأمور تأخذ منحى خشناً وصعباً. أجل. إن الله تعالى قادرٌ. وبمساندة من الله وثم من أنابولس، استمر في التنبؤ بأنه سينجو، وأحس في واقع الأمر أنه واثق أكثر من أي وقت مضى. من يستطيع اتهامه بأنه متنبىء كاذب؟ ألم يتنبأ، بدقة مشؤومة، بأن نهاية الطراد ستكون مفجعة؟

تمنى لو يسمح له الرجال فقط بمساعدتهم في البقاء أحياء أيضاً.

كان الضابط بلوم في هذه المجموعة نفسها. وشأنه شأن ردمين، لم يكن ميالاً لفقدان شخصيته المجهولة، ليس فوراً على الأقل. وللسبب نفسه حين تعم الفوضى، يعتبر رجال الطاقم الضباط أشبه بموانع الصواعق وكان يريد أن يجتاز هذا الكابوس.

أثناء غرق الطراد، صعدت إلى السطح الشطيرة التي كان يأكلها بلوم وهي منقوعة بالزيت والماء المالح. ورغم شدة مرضه، سبح مسافة مئتي متر في زمن قد يكون قياسياً. ولكن ماذا ينبغي له أن يفعل الآن وهو بمفرده في وسط أكبر محيط على الأرض دون واقية نجاة ودون وجود أي شيء يتشبث به؟ لم يُعدّوه في مدرسة ضباط الصف البحريين لموقف كهذا.

وفجأة، أثناء سمع بلوم أصواتاً، كان هناك رجلان طافيان بالقرب منه وكانت أذرعهما ملتوية حول حزام نجاة مطاطي منفوخ بالهواء. سبح تجاههما وعلق ذراعه حول الحزام. وها هو أخيراً قد حصل على سند. كان الرجلان ملائمين كذلك. افترض الجميع أن نداء استغاثة قد أرسل بالفعل وأنه سيتم التقاطهم بعد طلوع النهار. كان بلوم أقل الرجال قلقاً، إذ إن سلاح البحرية كان على أي حال منظمة ذات خبرة وتعرف ماذا تفعل ـ ما عدا بالطبع عندما يتعلق الأمر بمنح إجازات غياب. وكانت ثقة الرجال الثلاثة بإنقاذ فوري قوية لدرجة أنهم لم يتحدثوا عن النجاة وإنما عن الإجازات التي سيمضونها على الشاطىء بعد إنقاذهم وعما فقدوه من ممتلكات. فقد بلوم ثلاث زجاجات من الشراب. يا للمسكين!

وفي منتصف الصباح، شاهد الرجال أسطول الرماث الصغير والشباك وانضموا إلى المجموعة. وفي غضون ذلك، عثر بلوم على واقية نجاة وربط نفسه إلى رمث تدلى منه حبل وأخذ يراقب الرجال

وهم يجاهدون للصعود على الرمث. هل ينبغي له، بصفته ضابطاً المساعدة في استتباب النظام؟ على أي حال، لا يمكنه مساعدتهم في البقاء أحياء ولكنه سيعرض نجاته هو للخطر. كلا. سيحتفظ بقوته بهدوء ويصمد أكثر منهم جميعاً. شعر أنه في حالة بدنية ممتازة ـ حتى وإن كان جزء من تلك الشطيرة لا يزال عالقاً في معدته المصابة بالغثيان.

رغم ذلك، أحس بقليل من الارتباك حين سبح شخص نحوه وسأله بنظرة مسعورة تشع من عينيه: «أين نقودي؟ أعطيتك إياها لحمايتها».

من هو هذا الرجل؟ لم يستطع بلوم معرفته لأن وجهه كان أسود اللون من الزيت، تماماً مثل وجهه هو. وأحس بالارتياح حين علم أن الزيت هو الوسيلة المثالية لتحقيق الغفلية، حتى إنه لم يعرف زميله في بلدته، ضابط الصف توم بروفي Tom Brophy، كان من بين الرجال الذين كانوا حوله والذي سعى إلى أن يظل مجهولاً. إذن كيف استطاع هذا الرجل الذي يجابهه الآن معرفة من هو؟ وإلى جانب ذلك، لم يأخذ دونالد بلوم نقود أي من الأشخاص.

أجابه بلوم: «دراهمك ليست معي. دعني وشأني».

ثم ضرب الرجل بلوم الذي أحس بالخوف، وسبح إلى جانب الرمث الآخر. وتبعه المهاجم محاولاً ضربه مرة أخرى. ورغم أنه فقد الرجل في نهاية الأمر، لم يعد بلوم في غاية التفاؤل. وفكر أن

هذه هي البداية، إذ فقد المهاجم صوابه. وما لم يصل الغوث قريباً ـ أو ما لم يستيقظ ـ سيصيب كل واحد مس من الجنون.

كاد بلوم يشعر بالانضمام إلى الرجال الذين كان توايبل يؤمهم في الصلاة ولكنه لم يكن واثقاً من جدوى ذلك. حسناً، لا داعي للصلاة وإنما مجرد «تمنيات ثقيلة». ومع ذلك، كان منزعجاً، ويسأل نفسه ماذا عن هذا التصرف من البعض من الناس؟

«إلى هنا. إلى هنا»!

أين مصدر الصوت. كان يومان هافنز واهناً وهو يصارع في البحر النهم. بدا أن الصوت الذي سمعه الآن كان آتياً من كل اتجاه في آن واحد، وكأنه من مصدر موجود في كل مكان.

توالت الأزمات الواحدة تلو الأخرى منذ اللحظة التي قفز فيها هافنز من على متن السفينة. وإذ أخذ يسبح بعيداً عن السفينة الغائصة تحيط به واقية للنجاة، برز فجأة رجل دون سند كان على وشك الغرق وهو يختنق من الزيت والماء المالح، وتعلق بهافنز متشبثاً بذراعيه وخاصرته. حين عجز هافنز عن تخليص ذراعيه، غاص الرجلان ثلاث مرات تحت الماء قبل أن يتمكن من الإفلات باندفاعة قوية أخيرة. سمح لزميله بأن يظل متشبثاً بخاصرته على أمل إنقاذ كليهما ولكن لم يتمكن الرجل من الاستمرار في التشبث، وإذ أخذ يغوص في الماء أمسك بكاحلي هافنز. خبط هافنز الماء في حالة من اليأس وشعر بعد مزيد من الضربات بأنه تحرّر من عبئه، واختفى الرجل.

ومع أن هافنز كان يسبح بمفرده، لم يتقدم كثيراً إلى الأمام، إذ إن حذاءه المشبع بالماء، كان يجره إلى أسفل. حاول فك رباط الحذاء اللزج ولكنه غاص ثانية. وما كاد يطفو على وجه الماء حتى فرغ الهواء من حزام النجاة المطاطي بسبب الحطام على ما يبدو. وبدا له أن الوقت قد حان للحاق بأخيه... ثم جاء الصوت واستمر في المناداة:

«هنا! هنا! لدي شبكة لتحميل البضاعة».

صاح هافنز طالباً من صاحب الصوت الصفير كي يستطيع العثور عليه. وتمكن في نهاية الأمر من السباحة نحو الرجل وهو الميكانيكي جون ملدون John Muldoon الذي كان متشبثاً بشبكة ملتفة. وبعد الانضمام إلى ملدون بفترة قصيرة، جرى سحب رجلين آخرين إلى الشبكة كانا مريضين إلى أقصى حد من جراء ماء المحيط المالح المغث. ثم شوهد بالقرب من المكان رمث على متنه رجل واحد. سبح الرجال الأربعة المتشبثون بالشبكة إلى الرمث وصعدوا عليه. أصبح هناك الآن خمسة رجال ضد البحر ينعمون بحماية مزدوجة من أسماك القرش وغيرها من الأسماك المفترسة بعد أن فرشوا الشبكة تحت الرمث ذي الأرضية المشبكة.

راع هافنز حسن حظه إذ هناك من يرعاه بعنايته. انسابت أفكاره نحو عائلته. كيف كان لوالديه تحمل فقدان ابن آخر ـ في حادثة غرق ثانية؟

وبينما كان الرمث يتأرجح على ذروة موجة، شاهد هافنز فجأة على بعد ربع ميل تقريباً رمثاً آخر يحمل بعض الرجال. مزيد من الناجين! شعر بالحبور. أرجوك يا الله أن تساعدنا الآن! أخذ الرجال في الرمثين يجذفون باهتياج نحو بعضهم البعض. من ذاك الذي كان ينادي من الرمث الآخر؟ بدا الصوت مألوفاً لهافنز. إنه القبطان!

رغم أن الكابتن مكفاي كان حتى الآن يفتخر بكونه قائد طراد، فقد رضي بأن يكون مسؤولاً عن صندوق بطاطا حين طاف الصندوق بجانبه فور موت السفينة. ولم يستغرق وقتاً طويلاً لتحسين مركزه، إذ ما كاد يمتطي الصندوق حتى مر به رمثان الواحد فوق الآخر بعد إفلاتهما حين غاصت السفينة وغابت في أعماق المحيط.

صعد مكفاي على الرمثين وكان ممتناً لحسن حظه ولكنه دهش لعدم وجود مجذاف أو مؤن على متنهما حسبما تقتضي الأنظمة. وقد زاد حسن حظه من كربه على نحو ما. بدا الوضع فاحشاً على نحو ساخر ـ ها هو القبطان بمفرده مع رمثين بينما قد لا يكون لدى بعض الرجال هناك حتى واقيات نجاة لتسندهم.

كيف يمكن أن يكون حصل ما حصل؟ من المؤكد أن غواصة ضربت السفينة بقذائف الطوربيد. ولكن لم يرد إليه تحذير باحتمال وجود غواصة تحوم في المنطقة. استذكر أحاديثه في غوام مع العميد كارتر ومع الرجال في مكتب مدير الميناء. لا بد أنه كانت لديهم معرفة طفيفة بالخطر ـ تكفي للتأكد من تأمين مرافقة له على أقل تقدير. وبدلاً عن ذلك، جعلوه يفكر بأن المخاطر تكاد لا تذكر.

والآن، لربما مات معظم رجاله بينما بقي هو على قيد الحياة. بقي حياً ووحيداً مع رمثين!

تمنى لو أمكنه إنقاذ حياة شخص واحد فقط الآن، إذ لم يعد رجاله مجرد أفراد طاقمه ولكنهم أصبحوا جزءاً منه، وأن كربهم هو كربه، وموتهم هو موته، روحاً. كان يتخيل كل فرد تعامل معه ـ كيف كان مظهره وما هي الكلمات التي نطقها. وقد التقى بالعديد من أحبائهم عندما جاؤوا لزيارة الأولاد في جزيرة مير Mare Island. ماذا سيقول الآن لهؤلاء الثكالى ـ هذا إذا ظل هو على قيد الحياة. حياة واحدة فقط...

«النجدة! النجدة!».

جال مكفاي ببصره البحر بالعين الواحدة التي يستطيع أن يرى من خلالها، إذ إن عينه الأخرى قد عميت مؤقتاً بسبب زيت الوقود. لقد استجيبت دعوته.

نادى قائلاً: «تعالوا هنا. لدي رمث».

في غضون ثلاث دقائق، جاء ثلاثة رجال سباحة، أحدهم الضابط المسؤول عن الإمدادات والتموين فنسنت ج. آلارد Vincent J. Allard الذي كان يساعد في رفع رفيقين أصغر منه سناً سحبهما مكفاي على الرمث العلوي، وبمساعدة من آلارد، فصل الرمثين وربطهما معاً ووضع الرجلين الآخرين اللذين لم يتمكنا من التوقف عن الغثيان والتقيؤ في الرمث الثاني. راود مكفاي شك في أن يظل

الاثنان على قيد الحياة تلك الليلة وظل يراقبهما وكأنهما ولداه. وعندما تحسنت حالتهما بعد بضع ساعات، أحس بفرح عارم. كما زادت بهجته عندما اكتشف وجود مجاذيف وطعام وأجهزة إشارة وغير ذلك من لوازم الطوارىء. لم تكن هذه اللوازم على متن الرمث بالفعل ولكنها كانت معلقة في «أسفل» الرمثين اللذين كانا يعومان رأساً على عقب.

ظل مكفاي طيلة الليل يحملق في البحر للبحث عن مزيد من الرماث ومزيد من الرجال، ولكن الأمواج العاتية بطول 12 قدماً جعلت من المتعذر تقريباً رؤية أي شيء وراء الموجة المتدحرجة التالية، سيما أن القمر كان يمارس لعبة التخفي «الاستغماية» من وراء السحب. كان العالم الغائم الذي حملق فيه بعين واحدة صامتاً ورائقاً. ومع ذلك، قبل عدة ساعات فقط، كان قد شاهد العنف الهائل لسفينة ضخمة، فقد ابتلعت مدينة عائمة بكاملها في وسط صدمة التحطم وصيحات رجال محاصرين. لماذا لم تسقط تلك الدواسر اللولبية الكبيرة عليه وتسحقه بل وتمزقه! عندئذ لن يضطر لمواجهة الآباء والزوجات والأحباء والأميرالات أو لرؤية الألم في أعين والده وزوجته... ألم يعد هناك مزيد من الناجين؟

بعد بزوغ الفجر بقليل، علم بوجود ناجين آخرين وذلك عندما لمح مجموعة يومان هافنز.

ما إن تم ربط رمثا مكفاي بالرمث الثالث وبشبكة الشحن حتى أخذ القبطان يمطر القادمين الجدد بوابل من الأسئلة. ما هي أسماؤهم

ورتبهم؟ هل يحتاج أحد إلى رعاية طبية؟ هل رأوا أية مجموعات أخرى أو عرفوا عنها؟ هل يعرفون عن موت أشخاص؟

تأثر هافنز والآخرون بالقلق الذي أبداه مكفاي عليهم وعلى رفاقهم. لكن لم يكن بوسعه عمل أي شيء للمساعدة. وبأعجوبة، لم يكن أحد من الرجال مصاباً رغم أن بعضهم، مثل الكابتن نفسه، كان نصف أعمى من الزيت وآخرون يرون بعين واحدة بشق الأنفس. كانت الأعين محرقة سواء ظلت مفتوحة أم مغلقة، ولم يكن الألم ليهدأ إلاّ إذا بقيت العينان مفتوحتين أو مغلقتين لفترة تزيد على عشر دقائق كل مرة. أما عن ناجين آخرين، لم يشاهد الرجال أحداً. بدا الحزن على وجه القبطان. هل الرجال التسعة، بمن فيهم ضابط واحد ـ أي هو نفسه ـ الوحيدون الذين ما زالوا على قيد الحياة؟

رغم الانهيار الذي شعر به مكفاي، حاول أن يجعل الحياة تبدو طبيعية قدر الإمكان، وتظاهر وكأن الرجال يقومون بمناورة فحسب. قنن الكمية القليلة من الطعام الذي وجده على الرمثين ـ بسكويت، سبام، أقراص من حليب الملت ـ وذلك كي تدوم عشرة أيام إن أمكن. إضافة إلى ذلك، وجد معدات صيد على ظهر الرمثين، وكان صياداً ماهراً نوعاً ما. كما وجد كمية من السجائر ولكن كانت أعواد الثقاب مبللة للأسف. والتقط أيضاً برميل ماء صغيراً طافياً ولكنه قال إن محتوياته لن توزع إلاّ «عند الضرورة القصوى» إذ إن الماء العذب نادر للغاية. لم يجرؤ على إخبار الرجال أنه تذوق الماء ووجده مالحاً وبالتالي غير صالح للشرب.

ثم أخذ مكڤاي ورقة من محفظة أحد الرجال وأخذ قلماً من جيب رجل آخر وبدأ يدون الأحداث وحكم على موضع المجموعة من خلال الشمس. وأعد قائمة خفارة مدتها ساعتان ـ وذلك للمحافظة على الروتين البحري وللتأكد من وجود رجل يقظ فيما إذا ظهرت سفينة أو طائرة. قد يطرد من سلاح البحرية ولكنه لا يزال هو القبطان في الوقت الحاضر وسوف يدير بإحكام رمثاً أو أسطولاً من الرماث.

وفجأة، لم يعد مكڤاي يوحي بصورة قبطان وإنما صورة الصياد البسيط الذي أحب أن يكون وقد ارتدى قبعة قرنية الشكل صممها له آلارد من قطعة قماش من القنب عثر عليها على الرمث وغطى بها أذنيه كيفما كان. وارتدى جميع الرجال قبعات مماثلة للوقاية من أشعة الشمس. رمى مكڤاي صنارة في الماء واصطاد سمكة صغيرة ولكنه أدرك على الفور أنها من النوع السام. لذلك قطعها إلى أجزاء واستخدمها طعماً ثم رمى الصنارة مرة أخرى. جاءت سمكة كبيرة هذه المرة ـ أكبر سمكة رآها في حياته. إنها سمكة قرش!

نظر الرجال حولهم ورأوا قرابة خمسة من هذه المخلوقات تحوم بالقرب منهم. أصابهم الهلع. كيف يمكنهم أن يدلوا أرجلهم في الماء؟ ماذا لو نام أحدهم وسقط في الماء؟ حاول مكڤاي أن يهدىء من روعهم. ولكي يمنحهم القوة، أمهم بالصلاة مثلما يفعل كل صباح، مرتجلاً الكلمات. لم يكن رجل دين، ولكن من المؤكد أن الله قريب منهم في أوقات كهذه.

وحذا حذوه أوثا هافنز ورجل آخر هو جاي غلن Jay Glenn. فقد ساعدا في رفع المعنويات بأداء أغان كلاسيكية شعبية مرحة. ولكن صوتهما ليس صوت الأخوات أندروز Andrews Sisters اللواتي يؤدين هذه الأغاني، ويبدو أن أسماك القرش أدركت ذلك وأخذت تختفي أثناء هذه الحفلات الغنائية المتكررة رغم أن سمكة واحدة واظبت على الاستماع.

وبقيت سمكة القرش هذه للعشاء أيضاً. ففي كل مرة كان يرمي مكفاي الصنارة في الماء، كانت السمكة موجودة لالتقاط الطعم أو لتخويف سمكة أخرى. أحس مكفاي بالإحباط. شاهد العديد من مجموعات الأسماك بأحجام لا بأس بها، وبخاصة سمك بونيتو bonito أو سمك الأسقمري mackerel الصغير. أولاً، هناك الماء العذب الذي لا يمكن شربه، ثم السجائر التي لا يمكن إشعالها، والآن أسماك لا يمكن صيدها. ورغم هذا الإخفاق، حاول مكفاي عدم إبداء انزعاجه. وعلى أية حال، كانت هذه المنغصات طفيفة مقارنة بما يعانيه ناجون آخرون ـ إن وجدوا.

إلى جانب ذلك، أراد مكفاي التخفيف من دواعي القلق وليس تأجيجها. كان يحاول التصرف تصرفاً لائقاً في هذه الظروف الجديدة، إذ لم يكن يعيش الآن مع ضباط شاطروه أنماط حياة أو خلفيات تعليمية أو تقاليد اجتماعية متشابهة، وإنما كان يعيش مع رجال «أدنى رتبة» يفترض أن ينظروا إلى الضباط بخشية معينة. ولم يكن قط ليحتسي شراباً مع هؤلاء الرجال في أحد نوادي الضباط.

رغم أنه كان يعتبرهم كأطفاله تقريباً، وبخاصة في أعقاب الكارثة، لم يكن على أية حال يعرف طفليه الحقيقيين حق المعرفة.

لكنه أراد الآن معرفة زملائه في الرمث ليحس بإحساسهم ويفتح قلبه لهم لأن صلته معهم لم تعد شكلية، ولكنها تشكلت في حريق الكارثة. وبما أن غطرسة الطموح رضخت لتواضع دمار معين، أحس على ما يبدو بحرية أكبر للتخلي عن التمييز الطبقي وللتعبير عن الانفعالات. ومع ذلك، ظل يبدو خائفاً وقلقاً. ما هي الفكرة التي يحملها عنه هؤلاء الرجال ورفاقهم الذين ربما بقوا على قيد الحياة؟ هل يلومونه بسبب المأساة، هل فقدوا احترامهم له، هل يكرهونه؟ إنه في نهاية الأمر قبطان السفينة، وأيّاً كانت الأسباب، فقد خذلهم وأودى بهم إلى هذه الكارثة.

وعلى أية حال، سيظل الأحياء يذكّرونه بالأموات ولن يدعه الأموات أبداً ينسى واجبه المقدس ـ التفجع عليهم بلا هوادة والتذكر. سيظل يعيش مع رجاله، سواء بجسده أو بروحه، حتى الرمق الأخير. وعليه أن يعرف من هم، ويجب على من لايزال حياً أن يخبره.

جلس على حافة الرمث وسأل الرجال عن خططهم المستقبلية. هل سيظل هافنز في البحرية؟ أجاب هافنز: «فكرت في مهنة كهذه ولكنني لم أستطع أن أجعل رفيقتي بيللي تفهم أن الزوجات في أوقات السلم يذهبن مع أزواجهن ويبقين عادة معاً».

أخذ مكفاي يفكر في تجربته في أوقات السلم وهو يضحك بينه

وبين نفسه وتردّد في إثبات أن بيللي كانت متفهمة للغاية.

استفسر عن عائلاتهم. وأجابوا بحرية ولكنهم تردّدوا في توجيه أسئلة شخصية له. لم يكونوا مضطرين لذلك. ماذا عن مستقبله هو؟ لقد تطوع وسوف يتقاعد في غضون سنوات قليلة، على أمل أن يكون برتبة أميرال، ولكنه لم يجرؤ على القول إن هذا كان يبدو الآن بعيد الاحتمال جداً. بعد ذلك، سوف يتمتع هو وزوجته بالحياة معاً. كانت لويز امرأة بكل معنى الكلمة. سألوه إن كانت تحب القنص. قال لهم إنه كان عليهم أن يروها أثناء فصل صيد البط. وماذا عن صيد السمك؟ بوسعها أن تصطاد أي شيء. ليتها كانت معه الآن. لويز... لويز... كان اسمها لا يفارق شفتيه.

ذهل الرجال. هل هذا هو قبطانهم حقاً؟ عرفوه بصفته رجلاً منصفاً وإنسانياً، شخصاً يحترمونه ويمكنهم الوثوق به، ولكنهم لم يحلموا أبداً بأن يتبادلوا معه المزاح في شؤون عائلية ومشاعر شخصية. فوجئوا أيضاً حين وجدوا أن بوسعهم أن يحبوا قبطانهم ليس كقائد فقط وإنما كزميل. وأحسوا بنفس القدر من الدهشة حين علموا أنه قادر على أن يحب الناس بهذا القدر من الحماسة ـ رجاله، زوجته. من كان يتصور ذلك؟

انقطعت المحادثة في مناسبة واحدة عندما أشار أحد الرجال إلى البحر وصاح: «هناك رمث آخر»!

نظر مكڤاي بعيداً ورأى رمثاً على مسافة 1500 متر تقريباً وهو

يمتطي الأمواج، وعلى متنه رجل واحد ما يبدو وهو يستغيث. وفي الوقت ذاته تقريباً، شاهد رمثاً آخر يقفز في الأمواج على مسافة أبعد وعلى متنه العديد من الرجال. أجرى مكڤاي إحصاءً لعدد الرجال في أسطوله الصغير، واعتبر أن مجموع الناجين ربما يتراوح بين 25 و30 رجلاً من أصل 1200 رجل تقريباً.

بوسع القبطان ورجاله أن يجذفوا ويصلوا إلى أقرب رمث في غضون ساعات قليلة، ولكن الوصول إلى الرمث الثاني سيستغرق وقتاً طويلاً للغاية، ومن المؤكد أن أيديهم سوف تتنفط وتتحول إلى تقرحات مزعجة في الماء المالح، تماماً كما تفعل أصغر الخدوش. حملق مكڤاي في الرجال حوله ورأى أنهم في منتهى الإنهاك بحيث لا يستطيعون التجذيف إلى الرمث الأقرب، وكانوا في غاية الإرهاق بسبب عدم النوم وعدم التيقن من إنقاذهم.

أدت الريبة إلى تشاؤم عميق موهن، وخاصة بعد أن حلقت فوقهم عدة طائرات في ذلك الصباح ثم تلاشت في اللانهاية. استخدم القبطان ورجاله مرآتين لإرسال إشارات ضوئية، ولوحوا برايتين صفراوتين لإرسال إشارات، ولبطوا الماء بأيديهم وأقدامهم، ولكن دون جدوى.

لجأ مكڤاي إلى كذب رقيق وطلب من رجاله ألاَّ يقلقوا لأنه يعلم شخصياً أن رسالة الاستغاثة قد أرسلت. وعلى أية حال، كان من المقرر أن تصل السفينة إلى لايته في اليوم التالي، أي يوم الثلاثاء. لذلك، عندما تخفق في الوصول، ستصدر على الفور أوامر بالبحث

عنها، هذا إن لم يكن قد بوشر بالبحث عنها. وفي غضون ذلك، عليهم الحصول على بعض الراحة قبل التجذيف إلى أقرب رمث.

وحين بزغت الشمس فوق الأمواج يوم الثلاثاء، وابتهاجاً منهم بالتفكير في أن العون في طريقه إليهم بالتأكيد، اتجه الرجال إلى الرمث وهم يتناوبون التجذيف ووصلوا إليه بعد أربع ساعات ونيف منهكة للقوى.

سأل مكڤاي الناجي الوحيد الذي كان على الرمث إن كان بصحة جيدة. رد الشاب بالإيجاب وقد أحس بالدهشة لرؤية القبطان نفسه. ولكن بما أنه أمضى ليلتين ونهاراً بمفرده في وسط المحيط ولم يكن هناك أحد ليكلمه سوى أسماك القرش وغيرها من الأسماك، فقد أخذ يحس بالوحدة. وأعرب عن أمله في ألاَّ يتضايق القبطان من صعوده إلى رمثه.

ابتسم مكڤاي حين صعد البحار على متن رمثه. ولم يستطع تمييز السمات على وجه الصبي الذي كان، مثل الجميع، أسود من الزيت ـ إضافة إلى أنه لم يكن بوسعه على أية حال أن يرى على نحو جيد جداً بعينه السليمة. ولكن لا بأس، كان هذا الصبي نوعاً ما بمثابة كل فرد مفقود من طاقمه، الأحياء والأموات. وكان بمثابة كل ابن وحيد له.

كلا. لم يكن ليبالي. كان هناك الكثير للحديث عنه أيضاً ـ بانتظار وصول سفينة.